المحاضرة الثالثة: المنهج الذوقي عند الحلَّاج.

كان الحلَّاج فوق رسالته الإصلاحية والربانية مربيًّا، وأستاذًا صوفيًّا، في القمة، سلوكًا ومعرفةً. ولقد التف حول الحلَّاج في حياته أكبر مجموعة صوفية، في تاريخ القرن الثالث الهجري –عصر التصوف الذهبي– حتى ليقول ابن كثير: «إنه كان يلازمه في سفره الشاق الطويل أكثر من أربعمائة من صفوة المريدين السالكين».

وفي كل بقعةٍ في الشرق الإسلامي، من بغداد إلى أعالي الهند تكونت مجموعاتٌ حلَّاجيةٌ، ثم تحولت هذه المجموعات إلى جامعةٍ صوفيةٍ، دانت للحلَّاج بالزعامة والولاية، واتخذت منهجه معراجًا وصراطًا.

والحلَّاج لم يستكمل تربيته الصوفية على أيدي المشايخ الكبار، لقد انفصم ما بينه وبينهم مبكرًا، فحلَّق منفردًا في القمم العالية، واصطلى وحده التجربة الصوفية كاملةً، وألزم نفسه ألوانًا من المجاهدة والرياضة، تعمَّد فيها القسوة والصرامة!

ومن هنا جاءت تلك البروق الشاطحة، وتلك الحرارة الدافقة، التي امتزجت بتعبيرات الحلَّاج، وطبعت مواجيده وألحانه! بل من هنا جاءت تلك الصلة الكبرى بين الحلَّاج وربه، تلك الصلة العالية الصوت في حياته، الصلة التي تجعلنا ونحن نقرأ للحلَّاج نحس برجلٍ يعيش أنفاسه مع مولاه، فهو أنيسه وجليسه، وحبيبه ومربِّيه...

يقول المستشرق ماسنيون في مقدمة كتاب الطواسين: «وليس هناك من متصوفٍ في التاريخ أكثر «عِشرة مع الله» من الحلَّاج الذي يتصل في حديثه معه «أنا» و«أنت» و«نحن» وليس هناك من شعرٍ صوفيٍّ أشدَّ حرارةً وأكثر بعدًا عن المادة من شعر الحلَّاج».

يقول الحلَّاج، معبرًا عن منهجه في السلوك: «إنَّ الأسماء التسعة والتسعين تصير أوصافًا للعبد السالك، وهو بعدٌ في السلوك غير واصل.» ويقول: «من صدق مع الله في أحواله فهِم عنه كل شيءٍ، وفهم عن كل شيءٍ...».

ونستطيع أن نتذوق منهج الحلَّاج في آداب السلوك الصوفي، تلك الأداب التي ألزم مريديه بها، ... ولقد حفظ لنا أبو عبد الله السلمي –المؤرخ الصوفي الكبير– زبدةً طيبةً من ذلك الدستور...

فالسلمي: يعرض لنا أدب المريد، ثم يقيم الشاهد والدليل من كلمات الحلَّاج ومذهبه ... والعلامة الكلاباذي –في التعرف لمذهب أهل التصوف– قد حفظ لنا جملًا من هذا التراث، أدرجها تحت قوله: «قال بعض الكبراء.» لقد كانت محنة الحلَّاج الهائلة تُرْهِبُ الكتاب، وترهب رجال التاريخ، فتصرفهم عن اسمه، وعن تراثه!

يقول أبو عبد الله السلمي: «من آدابهم ترك التدبير، والرجوع إلى حال التسليم، قال أبو الحسين بن منصور: من سلم إلى الله أمره صنع به، وصنع له، ومن وجد الله لم يجد معه غيره، ومن طلب رضاه حباه الله بالمكنون من سره، وهو قوله ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيمًا».

ومن آدابهم: دوام التوبة مما عملوا ومما لم يعملوا مما جرى عليهم من الغفلات، كذلك حكي عن الحسين بن المنصور أنه قال: «التوبة مما لا تعلم تبعثك على التوبة مما تعلم. والشكر على ما لا تعلم يبعثك على الشكر على ما تعلم؛ لأنه حرامٌ على العبد الحركة والسكون إلا بأمرٍ يؤديه إلى أمر الله».

ومن آدابهم الحضور وقت الذكر، ومجانبة الذكر على الغفلة؛ لذلك قال ابن منصور: «مَن ذكر الله وهو يشاهد غيره لا يزداد منه إلا بعدًا، ويقسو قلبه، ويكون مُستدرَجًا لا يهتدي».

ومن آدابهم ترك التدبير، والسعي في طلب الرزق، والسكون في كل الأصول إلى مسوق القضاء وضمان الحق، كما قال الحسين بن منصور: «من أراد أن يتذوق شيئًا من هذه الأحوال فليُنزل نفسه إحدى منازل ثلاث: إما أن يكون كما كان في بطن أمه -مدبَّرًا غير مدبرٍ، مرزوقًا من حيث لا يعلم- أو كما يكون في قبره، أو كما يكون في يوم القيامة» ... وقال أيضًا: «المتوكل رزقه من حيث لا يعلم بغير حسابٍ، ولا يكون عليه فيه سؤال...».

ومن آدابهم ترك لفظ «أنا» و«نحن» و«لي» وما أشبه ذلك، كما رُوي عن النبي ﷺ أنه استأذن عليه رجلٌ فقال: «من ذا؟» فقال: أنا —— أنا —— فكرِه ذلك رسول الله ... وحُكي عن الحسين بن منصور أنه قال: «إذا قال العبد «أنا» قال الله تعالى: بل «أنا»، وإذا قال العبد: لا بل أنت يا مولاي، قال المولى: بل أنت يا عبدي، فيكون مراده مراد الله فيه».

ومن آدابهم: العمل في الوقوف على ما يرد عليهم من الأحوال، حُكي عن الحسين بن منصور أنه قال: «حفظك أنفاسك وأوقاتك وساعاتك وما هو بك، وما أنت فيه، فمن عرف من أين جاء، عرف إلى أين يذهب. ومن علم ما يُراد منه علم ما له، ومن علم ما عليه علم ما معه. ومن لم يعلم من أين أتى وأين هو وكيف هو ولمن هو فذاك ممن لا يعلم، ولا يعلم أنه لا يعلم، ويظن أنه يعلم ... ».

ومن آدابهم: في معرفة الدواعي، قال الحسين بن منصور: «داعي الإيمان يدعو إلى الرشد. وداعي الإسلام يدعو إلى الإطلاق، وداعي الإحسان يدعو إلى المشاهدة، وداعي الفهم يدعو إلى الزيادة، وداعي العقل يدعو إلى المذاق، وداعي العلم يدعو إلى السماع، وداعي المعرفة يدعو إلى الروح والراحة، وداعي التوكل يدعو إلى الثقة، وداعي الخوف يدعو إلى الارتفاع، وداعي الرجاء يدعو إلى الطمأنينة، وداعي المحبة يدعو إلى الشوق، وداعي الشوق يدعو إلى الوله، وداعي الوله يدعو إلى الله، وخاب من لم يكن له داعيةٌ من هذه الدواعي! أولئك من الذين أهملوا في مفاوز التحير، وممن لا يُبالي الله بهم».

الحلَّاج والتصوُّف:

كانت حياة الحلَّاج وما انبثق منها من إشعاعاتٍ وإشراقاتٍ، وما ابتدعت من مناهجَ في التفكير والتأمل والروحانيات، كانت كما يقول نيكلسون: لحظة جوهرية في تاريخ التصوف الإسلامي.

كانت حياته، من نقاط التحول والتطور في الأفق الصوفي، ومن مطالع النماء والخصوبة في التفكير الروحي، وإلى الحلَّاج ترجع الأصول الكبرى لذلك التراث الإسلامي العالمي، الذي شكل في محيط الفكر الصوفي، أعظم القوى الروحانية الإيمانية التي عرفها تاريخ الإنسان.

والتصوف عند الحلَّاج، هو انتساب الإنسان إلى الله سبحانه، لا إلى هذا العالم المادي الحيواني، هو ارتفاع الإنسان إلى الله في سفرٍ طويلٍ هائلٍ، لا تقدر عليه إلا عزمات الرجال الكبار، المصطفين الأحرار.

سفرٌ تفنى فيه الصفات البشرية، في الصفات الإلهية، فناء طاعةٍ وعبوديةٍ، وحبٍّ ووجدٍ، وذوقٍ وشوقٍ.

ويُقَسِّمُ الحلَّاج هذا السفر الطويل إلى أربع رحلاتٍ، تبتدئ أولاها بالمعرفة وتنتهي بالفناء، والثانية تبدأ أنوارها وإلهاماتها، حينما يعقب الفناء البقاء، وفي الثالثة، يوجه الإنسان الكامل اهتمامه لمخلوقات الله مرشدًا وهاديًا.

والرابعة وما أدراك ما الرابعة! قمةٌ سامقةٌ مشرقةٌ، يحلق الإنسان في آفاقها وقد غمرته الصفات الربانية، والأنوار الإلهية، فيصبح مرآةً تتجلى فيها حقائق الكون وأسراره، وهو موقفٌ لا مجالَ للحديث عنه، وحسبنا إلى أن نومئ هنا إلى كلمة الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي: «ليس في مستطاع أهل المعرفة إيصال شعورهم إلى غيرهم، وغاية ما في هذا المستطاع هو الرمز عن تلك الظواهر لأولئك الذين أخذوا في ممارستها.

ومن أراد فقهًا أكبر، فليتأمل قول سيد المرسلين في حديث الإسراء: «انعكس بصري في بصيرتي، فرأيت من ليس كمثله شيءٍ» أي رآه بالحاسة القلبية الروحية.

يقول الحلَّاج: «أسماء الله التسعة والتسعين تصير أوصافًا للعبد السالك، وهو بعدٌ في السلوك غير واصلٍ».

ويقول: «من صدق مع الله في أحواله، فهم عنه كل شيءٍ، وفهم عن كل شيء».

ولقد حمل الحلَّاج أمانة المعرفة الصوفية العليا وعاشها بروحه وقلبه وحسه، وقدم دمه فداءً لها في بطولةٍ أسطوريةٍ لا يزال شعاعها وإلهامها يومض عبر التاريخ.

كانت تجربة الحلَّاج الصوفية من أصدق وأخلص ما عرف تاريخ التصوف، وهذا سرُّ ما فيها من عمقٍ، ومن حرارةٍ، ومن إلهامٍ.

لقد صعد في معارجها بجناحٍ جبار من أجنحة الحب والوجد، ووهبها كل ذرات روحه وهتافات قلبه، وأماني حسه، وحمل قيثارته ليهب للخلود، إلهامات حبه ومعرفته وتجربته.

ما للحلَّاج والناس؟ لقد سما فوق التراب والطين، وتطلع إلى مشارق الروح، ورب الأرباب.

ولنستمع إليه في تلك الضراعة المؤمنة المحبة الملهمة وهو يناجي حبيبه الأكبر وموجوده الأعظم: «... عن ابن الحداد المصري قال: خرجت في ليلةٍ مقمرةٍ إلى قبر أحمد بن حنبل رحمه الله، فرأيت هناك من بعيدٍ رجلًا قائمًا مستقبلًا القبلة فدنوت منه من غير أن يعلم، فإذا هو الحسين بن منصور وهو يبكي ويقول: يا من أسكرني بحبه، وحيرني في ميادين قربه، أنت المنفرد بالقِدم، والمتوحد بالقيام على مقعد الصدق، قيامك بالعدل لا بالاعتدال، وبعدك بالعزل لا بالاعتزال، وحضورك بالعلم لا بالانتقال، وغيبتك بالاحتجاب لا بالارتحال، فلا شيء فوقك فيظلك، ولا شيء تحتك فيقلك، ولا أمامك شيء فيحدك، ولا وراءك شيء فيدركك ... أسألك بحرمة هذه الترب المقبولة، والمراتب المسئولة، ألا تردني إليَّ بعد ما اختطفتني مني، ولا تريني نفسي بعد ما احتجبتها عني، وأكثر أعدائي في بلادك، والقائمين لقتلي من عبادك.

فلما أحسَّ بي التفت وضحك في وجهي ورجع وقال لي: يا أبا الحسن، هذا الذي أنا فيه أول مقام المريدين، ثم زعق ثلاث زعقاتٍ وسقط وسال الدم من حلقه، وأشار إليَّ بكفه فذهبت وتركته، فلما أصبحت رأيته في جامع المنصور فأخذ بيدي ومال بي إلى زاويةٍ وقال: بالله عليك، لا تُعلم أحدًا بما رأيت البارحة».